حديقة النبي

جبران خليل جبران

حديقة النبي

The GARDEN Of The PROPHET

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

- ❖ حديقة النبي/ جبران خليل جبران
- ❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي
- ❖ الطبعة الأولى عام 2004 عدد النسخ 1000 نسخة

- ❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة رسلان علاء الدين

للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب : 3 058

هاتف: 6 0 5 فاكس: 5613241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1898 ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان 1902 بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام 1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام1920 بكتاب (السابق) وعام1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أما بنيـة الأدب الجـبراني، فتتـألف مـن مزيـج مـن العنـاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثوري وحداثـي فـي الوقت نفسـه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن   لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم   لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ   لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف   وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً   بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى   والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ   وتنشّفتَ بنور
وشربت الفجر خمراً   في كؤوس من أثير
هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً   وتَلَحَفّتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي   ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري - ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

حديقة النبي

دراسة تحليليّة

عندما أصدر جبران كتابه (النبي) عام1923، شعر أنه أودع فيه أقصى ما يمكن له أن يعبّر عنه، من خلجات نفسه وتطلّعات روحه، وأصداء تجاربه ، وعصارة فكره، وخلاصة رؤيته للإنسان والحياة والوجود. إلى درجة جعلته يقول لصديقته (ماري هاسكل) في إحدى رسائله إليها إنه صرف سني حياته السبع والثلاثين جميعها ليضع ذلك الكتاب. ويقول إن كيانه كله متضمّن الآن في (النبي) وان هذا سيكون حياته إلى أن ينتهي [1]وقد أكدّت ماري هاسكل بدورها الاهتمام الكبير الذي كان جبران يوليه لكتاب (النبي)

---

(1) د. توفيق صايغ- أضواء جديدة على جبران-دار رياض الريس-الطبعة الثانية-لندن صفحة 62

فقالت: (هذا هو الكتاب الذي يقصده عندما يقول:كتابي)[2]

ومع ذلك، فإن جبران على ما يبدو، لم يكن يتوقّع مثل هذا النجاح الهائل الذي حقّقه الكتاب فور صدوره. الأمر الذي يمكن لنا أن نقف عليه في رسالته التي وجّهها إلى الأرشمندريت أنطونيوس بشير وقال فيها: (وأما رأي القوم في الكتيّب من وودرو ولسون إلى أكبر شاعر انكليزي، إلى أشهر كاتب فرنسي، إلى غاندي الهندي، إلى العامل البسيط، إلى الزوجة والأم، فمما لم أنتظره أو أتخيّله قط)[3]

ولا شكّ أن هذا النجاح قد ترك أكبر الأثر في نفس جبران، ودفعه إلى وضع مخطط لكتابين يكمل بهما مشروعه. ففي رسالة مؤرّخة عام 1923، يطلع صديقته (ماري هاسكل) على الهيكل العظمي لكل من كتابي (حديقة النبي) و(موت النبي)، فيقول لها: (تعرفين أن النبي ذهب إلى جزيرته- وهناك يتوّجه إلى بيت أمه- ويصرف جزءاً كبيراً من الوقت في حديقة أمه. ويجيئه تلاميذه التسعة من حين لآخر ليتحدثوا إليه في الحديقة. وتدور أحاديثه لهم على كيف أن الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة مترابطة معاً، وعلى صلة الإنسان بالأشياء الأخرى في الكون ومشاركته فعليّاً فيها.

---

(2) المرجع السابق-صفحة285

(3) أنطونيوس بشير-مقدمة كتاب النبي الذي نقله إلى العربية-المطبعة العصرية الطبعة الثانية-سنة 1934-صفحة(29)

ويحدّثهم عن قطرة الندى والمحيط، وعن الشمس والحباحب، و عن الهواء وطرق الفضاء، وعن الفصول وعن النهار والليل، وعن النور والظلام..إن (هذا الكتاب) يتناول علاقة الإنسان بالكون، كما تناول (النبي) علاقته بأخيه الإنسان... وفي الكتاب الثالث يعود النبي من جزيرته، وتأتيه جماعات متنوعة فيتحدث إليها عن الهواء فوق الأرض وتحت الغيوم والأمس والغد والفصول الأربعة والنمو والولادة والنور والظلام مرة أخرى، وسقوط الثلج، وعن النار والدخان. ويُلقى بالنبي في السجن. وعندما يطلق سراحه من جديد يذهب إلى الساحة العامة، ويرجمونه) [4]

إلا أن للنجاح تأثيراً آخر أيضاً، لاسيّما على كاتب في مثل حساسيّة جبران ورهافته. وقد تجلى هذا التأثير في تردّده في إنجاز الكتاب الثاني ، وهو (حديقة النبي)، بسبب قلقه المستمر وخوفه من ألا يكون في مستوى الكتاب الأول، أو ألا يحقق ما تحقق للنبي من شهرة ونجاح. لذلك بقي هذا الكتاب (في طريقه إلى الظهور) كما كان يقول جبران دائماً [5] إلا أنه لم يظهر أبداً في حياته، إذ وافته المنية في العاشر من نيسان1931.

وفي كتابها الذي وضعته عن سيرة جبران بعنوان: (هذا الرجل

---

(4) توفيق صايغ-مرجع سبق ذكره-صفحة287

(5) خليل حاوي-جبران خليل جبران-إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره-دار العلم بيروت 1982-صفحة263.

من لبنان)، قالت السيّدة (باربارة يونغ) وهي الشاعرة الأمريكية التي بقيت سكرتيرته الخاصة حتى وفاته، إن القطع المختلفة التي كتبها جبران لتكون فصولاً في كتاب (حديقة النبي)، كانت ناجزة، لكنها ونظراً لأن جبران لم يضع أي تصميم ينتظمها جميعاً، ولأنها كانت تفتقد إلى مجرى القصة، اتخذت على عاتقها، بكثير من التردّد، مهمة سدّ ما نقص) [6]وهكذا قامت يونغ بنشر كتاب (حديقة النبي) في عام1933، أي بعد سنتين من وفاة جبران.

غير أن الأسئلة التي بقيت مطروحةً على بساط البحث، منذ نشر الكتاب إلى اليوم، هي: أين تدخّلت السيدة يونغ؟ وكيف تدخلت؟ و كيف كان ترتيب فصول الكتاب قبل أن تضع تصميمها التي اعتقدت أنه سينتظمها؟ وألا يعكس ذلك رؤيتها الشخصيّة أكثر مما يعكس ما أراده جبران فعلاً؟ ثمّ ما هو النقص الذي قامت بسدّه، وهل اكتفت باختيار النصوص التي استخدمتها لهذا الغرض من كتابات جبران السابقة، أم أنها كتبت بقلمها ما اعتقدت أنه سيسدّ هذا النقص؟

لاشكّ أن هذه الأسئلة ستبقى دون أجوبة حاسمة، لأن السيّدة يونغ لم تشر إلى أي شيء يخصّ ذلك في كتاب (حديقة النبي) حين أصدرته. والكلام السابق الذي أوردناه قبل قليل، والذي تعترف فيه بتدخّلها في الكتاب،دون أن تقدّم تفاصيل ذلك، قالته في كتابها

---

(6) ا لمرجع السابق-صفحة263

عن سيرة جبران (هذا الرجل من لبنان) وليس في تقديم الكتاب نفسه، كما أسلفنا.

ومع ذلك، فإن القراءة المتمعنة يمكن لها أن تتيح للباحث الوصول إلى عدد من النتائج الهامة في هذا الصدد. وعلى رأس هذه النتائج ملاحظة أن بربارة يونغ قد ضمّنت الكتاب نصّين على الأقل، من نصوص جبران التي تعود إلى ما قبل مرحلة كتابته لحديقة النبي، وهما نصا (الويلات التسع) و(نفسي مثقلة بأثمارها).

أما النص الأول (الويلات التسع) فهو خطبة كتبها جبران قبل الحرب العالمية الأولى بسنة أو سنتين، كما يقول الدكتور جميل جبر[7] وكان يهدف من ورائها إلى تبصير أهل وطنه (لبنان) بأسباب تخلفهم، وتحريضهم على تجاوز هذه الأسباب ليتمكّنوا من النهوض والتقدّم. وكانت هذه الخطبة معروفة في لبنان، ويتم الاستشهاد بها والاقتباس منها قبل صدور (حديقة النبي) بزمن طويل. وقد حشرتها السيدة يونغ في الفصل الثالث من الكتاب، لتجعلها جواب النبي على ما طلبه منه أحد تلاميذه ويدعى (حافظ) حين قال: (حدثنا يا معلّم عن مدينة (اورفليس) وعن تلك الأرض التي أقمت فيها تلك السنوات الاثنتي عشرة). ولا ريب في أن القارئ الذي عرف مدينة أورفليس في كتاب (النبي)، ووقف على أحوال أهلها، سيشعر أن هذه الخطبة لا تناسب الموضع الذي أقحمت فيه، وإن السيدة يونغ لم تكن موفقة في

(7) جميل جبر-مي وجبران-بيروت1950-صفحة32.

اختيارها وإضافتها إلى الكتاب.

أما النص الثاني (نفسي مثقلة بأثمارها) فقد كتبه ونشره جبران قبل عشر سنوات على الأقل من صدور (حديقة النبي)، بدليل أن صاحب (مكتبة العرب) في مصر كان قد اختاره بين ما اختار من كتابات جبران التي ضمّها في كتاب (البدائع والطرائف) الذي أصدره باللغة العربية عام 1923[8]

وقد عَمَدَت السيدة يونغ إلى ترجمة النص إلى اللغة الانكليزية، وإضافته كاملاً إلى كتاب حديقة النبي، مؤلفة منه الفصل الرابع عشر، الذي بدأ بتوجّه النبي إلى المقبرة التي ترقد فيها والدته، وحين أطلّ طيف نور عظيم على السماء ،صاح المصطفى، من قرارة الوحدة التي تلفّ روحه،وقال: (لقد أثقلت روحي بثمرتها الناضجة..إلى آخر النص). وهنا أيضاً يدرك القارئ بسهولة أن هذا النص ينتمي إلى فضاء آخر غير الفضاء الذي يكتنف حديقة النبي. بل إن الصورة التي يقدّمها للنبي تكاد تتناقض مع صورته في بقية فصول الكتاب.

ففي هذا النص نجد النبي يشكو من أن روحه قد أثقلت بثمارها الناضجة، دون أن يجد صائماً طيّب القلب، كريم النفس، يأتي ويفطر على نتاجها، لذلك يتمنّى لو كان بئراً ناضبة جافة، لأن

(8) جبران-البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002-صفحة60

ذلك أجدى وأخفّ حملاً من أن يكون ينبوع ماء حيّ يمرّ به الناس ولا يشربون. مما يعني أن النبي يعتقد أنه وحده حامل الحكمة ،بينما يبدو الناس غافلين عنها ورافضين لها. وهو ما يتناقض بشكل مباشر مع ما قاله النبي للمرأة في الفصل الخامس حين سألته أن يتحدّث إلى الناس عما اختزنه من حكمة فأجابها: (إذا كنتِ لا تحسبين الناس كلهم حكماء، فلا تناديني بوصفي حكيماً، فأنا ثمرة فجّة، لا أزال عالقاً بالغصن، وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتّح) . ومن الطريف أن نلاحظ التناقض في الصورة نفسها إذ يصف النبي نفسه بالثمرة الفجّة، في حين يردد في النص المضاف أن روحه مثقلة بثمارها الناضجة. وأعتقد أن صورة الثمرة هي التي ذكّرت باربارة يونغ بهذا النص دون غيره من كتابات جبران. ويمكن لنا أن نخمّن أنها ،في سبيل تهيئة موضع له ،لجأت إلى التدّخل في مسار القصة، فجعلت قلوب تلاميذ النبي التسعة تتحوّل عنه في الفصل الثالث عشر، وصّمت آذانهم حيال كلماته، وانصرفوا عنه، فظلّ المصطفى وحيداً فريداً. ففي الحقيقة لا يمكن لنا أن نجد أي تبرير فني أو موضوعي لهذا التغّير المفاجئ في موقف التلاميذ، سوى ما خمنّاه من أن السيدة يونغ افتعلته لتجعل النبي يصيح من قرارة الوحدة التي تلفّ روحه بالنص المذكور.

وفي السياق نفسه أيضاً، يمكن لنا أن نلاحظ أن الفصل الخامس عشر من الكتاب، قد يكون بكامله من وضع بربارة يونغ.

إذ يبدأ الفصل بمحاولتها لإعادة القصة إلى مسارها الطبيعي، فتحدثنا أولاً عن النبي الذي أقام وحيداً لمدّة سبعة أيام وسبع ليال ، بعد أن انصرف تلاميذه عنه، إلا أننا سرعان ما نفاجأ بعودتهم إليه بقيادة (كريمة) فيعود كل شيء على ما يرام. دون أي تبرير فني أو موضوعي أيضاً لهذه العودة. ولا بدّ لنا من ملاحظة مسألة هامة أخرى في هذا الفصل، تتجلى في أن الأفكار التي يتحدّث عنها النبي إلى تلاميذه تبدو بعيدة عن موضوع الكتاب الرئيس. وبذلك فهو يختلف عن بقيّة فصول الكتاب، كما لا ينسجم مع الرسالة التي أرسلها جبران إلى ماري هاسكل، و التي أشرنا إليها سابقاً ،وحدّد فيها موضوع كتاب (حديقة النبي) بعلاقة الانسان بالكون.

فالفصل بكامله يدور حول السفر إلى الجبل المقدّس، وأهميّة أن تكون الأغنيات قصيرة كي تعيش في قلوب الناس، وضرورة قول الحقيقة الجميلة في كلمات قليلة، والنهي عن قول الحقيقة القبيحة، وصمّ الآذان عن الناقدين الباحثين عن الزلات، وعن التسامح والحبّ والعطاء وتحقيق الذات الرحيبة التي تسع الناس أجمعين. وهذه الأفكار جميعها لا تعدو كونها تكراراً لما قاله المصطفى في كتاب (النبي).

وليس ذلك فقط، بل إن ما خاطب النبي به كريمة في هذا الفصل، يبدو وكأنه قد استلَّ من خطاب النبي إلى أهل أورفليس في فصل (الوداع) من كتاب (النبي)، فهو يقول لها مثلاً: (أنا ذاهب، غير أني إذا ذهبت ولدي حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها

ستسعى في نشداني وتلملمني، وإذا كانت عناصر جسمي قد تبدّدت في صمت الأبدية، وأعود إليكم ثانية، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد بصوت يرتفع من قلب ذلك السكون الأبدي).

بينما يقول لأهل أورفليس في فصل الوداع: (إن يكن في ما قلته لكم شيء من الحق فذلك الحقّ سيعلن ذاته بصوت أكثر جلاء من صوتي اليوم، وبكلمات أقرب إلى مداركم.

إنني ذاهب مع الريح، يا أهل أورفليس، ولكن لا لأنحدر إلى فراغ العدم. وهذا النهار، إن لم يكن تحقيقاً لرغباتكم ومحبتي، فليكن عهداً حتى يجيء يوم آخر...إذن فاعلموا أنني سأعود إليكم من صميم السكينة العظمى)[9].

كما أن خاتمة هذا الفصل من (حديقة النبي) هي نفسها الخاتمة التي وضعها جبران لفصل الوداع في كتاب (النبي).

فكما بقيت (المطرة) وحدها صامتة تحدّق إلى السفينة حتى توارت في الضباب، بعد أن تفرّق الجمع، وراحت تردّد قول المصطفى: (هنيهة بعد، لمحة استراحة على الريح، وتلدني امرأة أخرى)[10] فإن (كريمة) بعد أن سار التسعة في طريقهم (ظلّت واقفة في الليل الزاحف، تشهد كيف أصبح النور والغسق شيئاً واحداً، وراحت

---

(9) جبران-النبي-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2003-صفحة156

(10) المرجع السابق-صفحة167

تواسي وحدتها ووحشتها بكلماته: (أنا ذاهب، ولكن إذا أنا ذهبت ولديّ حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وأعود إليكم مرّة ثانية).

وبالإضافة إلى ما سبق، يمكن لنا أن نتوقّف أيضاً عند الفصل التاسع من الكتاب، الذي يبدو بدوره غريباً عن النسيج العام له. ففي هذا الفصل تمجيد للوحدة والابتعاد عن الناس، ودعوة إلى التعالي عليهم وعدم معاشرتهم. إذ يقول النبي لأحد تلاميذه: (لقد حدث لي مرة أن سعيت في عشرة الناس، وجلست معهم إلى الموائد، وشربت معهم كثيراً، ولكن خمرهم لم تصعد إلى رأسي، ولا سرت في جوفي، وإنما هوت فحسب إلى أقدامي، وتخلّت عني حكمتي مغاضبة، وختم على قلبي وأصبحت مغلقاً، ولم يبق سوى قدميّ معهم في دخانهم، ثم لم أسع من بعد قطّ في معاشرة الناس، ولا شربت الخمر معهم على موائدهم..)

ومن الواضح أن هذا الكلام لا يتفق البتة مع تعاليم (المصطفى) في كتابي (النبي) و (حديقة النبي) على السواء. بل إنه لا يتفق أصلاً مع البناء الرئيس للقصة الذي يقوم على سعي النبي إلى لقاء الناس والتحدّث إليهم ومشاركتهم حياتهم وأفكارهم.

عدا عن أن الكلام السابق يتناقض حرفياً مع ما ورد على لسان النبي قبل صفحتين فقط (في الفصل السابع) حين دعا تلاميذه إلى مشاركة الناس طريقهم، وعدم التعالي عليهم فقال: (إن أوسع

طريق، يا أصدقائي وإخواني، إنما هو طريق رفاقكم من الناس.. والشمس، شأنها شأنكم، وشأني وشأن كل كائن، تجلس مساوية لغيرها في الشرف، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المفتوح ابداً، والمائدة الممدودة أبداً.)، ولذلك يمكن لنا أن نعتبر الفصل التاسع دخيلاً أيضاً على الكتاب. وأغلب الظنّ أن السيدة يونغ قد كتبته بنفسها، أو اختارته من بين نصوص جبران القديمة غير المنشورة، والتي ربما كانت تعود إلى مرحلة كتابته لنصوص (العواصف).

فروح هذا الفصل تنتمي إلى تلك المرحلة التي كان جبران فيها واقعاً تحت سطوة (نيتشه) وكتابه (هكذا تكلم زارادشت) أكثر بكثير مما تنتمي إلى مرحلته الناضجة التي كتب فيها (النبي) و(يسوع ابن الانسان) و(حديقة النبي).

ولا بدّ لنا، في سياق الحديث عن تدخّل بربارة يونغ في كتاب (حديقة النبي) من الإشارة إلى أن عدداً من الباحثين قد عبّروا عن اعتقادهم بأن ترتيب السيّدة يونغ للقطع التي كتبها جبران من حديقة النبي، كان ترتيباً غير صحيح بجملته، وعلى رأس هؤلاء الباحثين الدكتور الشاعر خليل حاوي، الذي خلص إلى القول أنه كان على السيدة يونغ (ألا تأخذ على عاتقها مهمة إعادة ترتيب الكتاب وفق حبكة نسجتها، بل كان من واجبها أن تقتصر على نشر تلك القطع على حالها. وربما كان لها أن تعلّق عليها قدر ما شاءت، أو تؤلف منها قصة ما، غير أنه كان من الواجب أن ترجئ ذلك إلى ما بعد نشرها

في الشكل الذي كانت عليه حين خرجت من بين يدي الكاتب)[11] وبالطبع فإنه لا يمكن لنا ألا أن نوافق الدكتور حاوي على ما ذهب إليه .

ومهما يكن من أمر، فإن رسالة جبران إلى هاسكل، التي أشرنا إليها، تبيّن لنا أنه أراد في هذا الكتاب أن يبسط رؤيته لعلاقة الإنسان بالكون، وتماهيه مع أشياء الطبيعة، مثلما سبق له أن عرض لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان في كتاب (النبي).

ورؤيته هنا أيضاً لا تخرج عن الإطار العام للفكر الجبراني في مرحلة نضوجه. هذا الفكر الذي يستند أساساً إلى مفهومين رئيسين ينتظمانه، هما (وحدة الوجود) و(الذات العظمى)، كما سنرى من خلال هذا التكثيف السريع لما قال به النبي في حديقته:

ففي البدء، لم يكن في الوجود سوى (الذات الخالدة الشاملة) التي يرمز لها جبران في كتبه جميعها بالبحر الأعظم، الذي لم يكن الإنسان سوى موجة من موجاته. ثمّ نسجت الريح (وهي أنفس الحياة) شراعاً من النور، ووهبت الإنسان شكله، فلفظه البحر إلى الأرض، ليردّد كلامه. ولذلك فإن التوق الأعظم للإنسان هو توقه إلى العودة إلى أصله، حيث السلام والحرية الأبدية.

ويرمز جبران للكون بالحديقة. وللحياة بالشجرة التي لسنا

---

(11) المرجع السابق-صفحة265

نحن سوى أوراقها الخضراء. ومن أهم صفات الحديقة الحكمة والعدالة والجمال. فمن يبتغي الحكمة عليه أن ينشدها في زهرة الأقحوان الأصفر أو في حفنة من الطين الأحمر، أو في غيرها من موجودات الحديقة أو أشياء الطبيعة، لأن الطبيعة لا يمكن إلا أن تكون حكيمة.

وحديقة الكون عادلة تتساوى فيها كل موجوداتها، التي تعيش بعضها على بعض في نعيم الحب وفقاً للشريعة القديمة السرمدية. فالأغراس التي تعيش على الشجرة، تمتصّ حليب الأرض أثناء هدأة الليل الناعمة، والأرض بدورها ترضع ثدي الشمس أثناء حلمها الهادئ، والشمس، شأنها شأن كل كائن، تجلس مساوية لغيرها في الشرف، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المفتوح أبداً، والمائدة الممدودة أبدا، وهكذا فالقديس والخاطئ هما أخوان توأمان، وجميع الذين نعتبرهم أشراراً ولصوصاً ومحتالين وغشاشين، إنما هم إخوتنا في الفاقة.

أما الجمال، فحيث لا يوجد لا يمكن أن يوجد شيء . وفي حديقة الكون لا وجود للقبح، فما القبح في الحقيقة سوى قشرة الصدأ على عيوننا والوقر في آذاننا، وما نحسبه قبحاً إنما هو ذلك الذي لم نجهد قط في بلوغه، ولم نتلهّف إلى ولوجه حتى نكتشف جماله الدفين.

وفي الحديقة لا يوجد شيء ميت، فجميع الأشياء تحيا وتتألق بضياء النهار وجلال الليل.وليس لحديقة الكون أسوار، ولا تحدّدها

أبعاد. فليس ثمّة من بعد سوى ذاك الذي لا تملك الروح أن تقطعه بالخيال. وليس ثمة من زمن، لأن السنين كلها قائمة في (الآن) فالحب يستنفد مقاييس الزمن وترجيعاته.

ويستخدم جبران حديقته ليؤكد مذهبه في وحدة الوجود. فالإنسان هو عبق الله وأريج طيبه. والله هو القلب الذي يحوي قلوبنا جمعاء، في حبّ يحيط بكل حبّ يخالجنا، في روح تغلّف أرواحنا كلها، في صوت ينطوي على أصواتنا جميعها. ونحن الله في الورقة، وفي الزهرة. والإنسان والحجر شيء واحد، ولا فرق بينهما سوى أن قلب الإنسان ينبض على نحو أدق قليلاً، إلا أنه لا ينطوي على هدوء الحجر. ففي أغوار الروح،وفي أعالي الفضاء لا توجد سوى اغنية واحدة، والحجر والنجم يترنّمان بتلك الأغنية معاً في جوقة متكاملة منسجمة. وإن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد، مثلما يعكس البشر الحياة،لأنهم هم والحياة شيء واحد.

وإذا كان جبران قد استقى مفهومه عن (وحدة الوجود) من تراث المتصوّفة العرب وفلاسفة الشرق ومن الحركات التيوزفية ومن وليم بليك واميرسون وغيرهم،كما بيّنا في دراساتنا لكتبه السابقة، فإننا في هذا الكتاب، يمكن أن نلمح أثراً لأفلاطون أيضاً في قول جبران: إن الحياة موجودة قبل أن توجد الكائنات الحيّة. والجمال موجود في الكون قبل أن يتجسّد في الأشياء الجميلة، وكذلك الحقيقة، فهي موجودة منذ الأزل قبل أن يوجد من يسعى إلى

التعرف عليها والتفوّه بها. فذلك يشابه ما قال به أفلاطون في جمهوريته من التفريق بين عالم (المثل) والعالم المادي. ف (المثال) أزلي أبدي وموجود قبل أن تظهر صورته المادية، التي ليست هي في حقيقتها غير ظل لمثالها الكامل.

وربما كان جبران قد اختار الحديقة مسرحاً لهذا الكتاب، ليظهر تماهي الإنسان مع أشياء الكون. فحياة الإنسان لا تختلف عن حياة غيره من موجودات الطبيعة في شيء. ولذلك يعمد جبران إلى معادلة الخصائص البشرية بما يماثلها من حركات عناصر الطبيعة. فانثيال الأفكار هو انثيال للثلوج المندوفة، والأحلام المستيقظة هي غمام يبرعم و يتفتّح في شجرة سماء القلب، وما الأفكار سوى أوراق الشجر التي تذروها رياح القلب على الروابي والحقول. وكما ينتظر الإنسان السلام حتى يحقق ذاته العظمى فيتخذ في سريرته ما لا شكل له شكلاً، فكذلك لا بد للغيم أن يتجمّع ويتراكم حتى تتشكّل أمنيته الدكناء في بلور صغير من شموس وأقمار ونجوم. وعندما يأتي الربيع سيجري سرّ الوجود الإنساني سواقيَ تنشد نهر الحياة في الوادي، كي يلفّ النهر السرّ ويحمله إلى الخضمّ الأكبر، الذي هو الذات الخالدة الشاملة، أصل الوجود وغايته الأسمى.

وما البشر غير أوراق خضر على شجرة الحياة، يزوّدها النهار بقوّة المعرفة، كما تزوّد الشمس النبات بأسباب الحياة. أما الليل فهو الذي يقود إلى خزانة كنز الحياة. وفصول الأعوام هي أفكارنا التي

تتغيّر وتتبدّل، فالربيع يقظة في صدرنا، والصيف اعتراف بأثمارنا، والخريف هو العتيق من غنائنا لترنيمة لا تزال طفلة في كياننا، أما الشتاء فهو رقدة طويلة تفعمها أحلامنا.والوحيد الذي يدرك الربيع هو الذي ينام مع الجذور تحت الثلج. بل إن البشر ليسوا سوى جذور بين التراب وبين السماوات المتحركة، فهم يستقون الحكمة من الأرض، ولكن لهم، مع ذلك، من أغصانهم التي لمّا تولد بعد، جوقة الرياح الأربع. فمع أنهم واهون لا شكل لهم، ولكنهم بداية أشجار سامقة جبّارة، ومستهلّ أدواح تناطح السحاب.

وإذا كانت الطفيليّات في الحديقة تعيش على النسغ الذي يتدفق من الأغصان، فإننا نحن البشر لسنا بأرقى منها، فكل ما هو كائن يعيش على كل ما هو كائن، مثل الأغراس التي تمتص حليب الأرض، بينما الأرض بدورها ترضع ثدي الشمس.

ومثلما يولد الفجر فوق الروابي، فإنه يولد في نفس الإنسان. فما الظلام غير فجر لم يولد بعد. وما قطرة الندى التي تنداح كرة في شفق الزنبق غير شبيه بأولئك الذين يجمعون روحهم في قلب الله. أما الله فلا يمكن إدراكه، لأنه جمال أبهى من جميع الأشياء البهية، ونشيد أرحب من أناشيد البحر والغابة، وجلال يقيم على عرش، كوكبة الجبّار أمامه ليست سوى موطئ قدم، وبيده صولجان ليست حياله نجوم الثريا سوى وميض لقطرات الندى. بيد أنه في وسع الإنسان أن يكون معه، عندما يسمو على كلماته إلى ذروة

يتناثر فوقها غبار النجوم، ويفتح يديه حتى تمتلئا ، ويجعل طريقه نغماً للمحبين وأرجاً للذين يودّون الحياة في البستان، وينشد ينابيع الجداول التائهة ، ويكون كهفاً يردّد الأصوات التي تتعالى في أعماقه، والتي هي أعمق من كل الأصوات، وعندها سيكون مع الله ،لأنه استطاع أن يحقق ذاته الكبرى. هذه الذات التي يرمز لها النبي بالغمامة ، لأنها لا تحدّ في قالب، والتي يعود إليها نسمة بيضاء لا صوت لها ، وقلباً يصغي إلى أعماقه مطمئناً كقلبها. ليصبح هو وإياها شيئاً واحداً.

وهكذا ينهي جبران كتابه الأخير، بنبرة رضا ، لا تختلف عما عبّر عنه الأنبياء والفلاسفة في التاريخ البشري، لحظة شعورهم بأنهم أتموا رسالتهم، وباتوا على أهبة مغادرة هذا العالم. فيخاطب جبران الغمامة (ذاته الكبرى) قائلاً:

(أيتها الغمامة ، يا أختي! أحببت العالم كثيراً ، والعالم أحبني

لأن بسماتي كلها كانت على شفاهه، وكل دموعي في عيونه...)

(أيتها الغمامة ، يا أختي

رغم أن ذلك مضى وانقضى، فإني في سلام

لقد كان كافياً أن اغني لمن ولدوا.

وإنه وإن كان الغناء ليس لي في الحقيقة ، ليرتفع من أعمق

أشواق فؤادي.

أيتها الغمامة، يا أختي الغمامة.

أنا وأنت الآن شيء واحد.

لم اكن ذاتاً منذ زمن طويل.

الجدران انهارت.

والسلاسل انكسرت.

وأنا ارتفعت إليك.

وسنبحر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية،

عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقه.

ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة.)

وبعد كتاب (حديقة النبي)، سيكتب جبران جملة واحدة ، هي : (وسوف يعود إلى مدينة أورفليس... ويرجمونه في الساحة العامة حتى الموت، فيدعو كل حجر باسم مبارك) [12]إلا أن هذه الجملة التي أرادها فاتحة لكتاب (موت النبي) الذي كان يزمع أن يكمل به ثلاثية (النبي)، ليعبّر فيه عن علاقة الإنسان بالله، ستكون ، في الحقيقة، خاتمة لحياته. وسيكون موت جبران هو كتابه الأخير.

(1 2) خليل حاوي-جبران ، إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره-دار العلم للملايين

صفحة 6 6 2

فقد بلغ الجدول البحر، وهاهي أمه تضمّه ثانية على صدرها، ليكون بداية شجرة سامقة جبّارة، ومستهل دوح يناطح السحاب..

أجل..فهكذا تكلم جبران..

د. نزار بريك هنيدي

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (16)

حديقة النبي

The GARDEN Of The PROPHET

BY KAHLIL GIBRAN

(1931)

تعريب

عبد اللطيف شرارة

حديقة النبي

1

عاد المصطفى، المختار، المحبوب الذي عاش ضحى مؤتلقاً حتى أتاه يومه، إلى جزيرة مولده في شهر تشرين، شهر التذكار.

وما إن اقتربت سفينته من المرفأ حتى انتصب واقفاً على مقدمها، ووقف حوله بحارته، وقد أفعمت قلبه الفرحة بلقاء الوطن.

وراح يتكلم، والبحر يهدر في صوته، ويقول: «ها هي ذي جزيرة مولدنا. لقد لفظتنا الأرض هنا، أغنية ولغزاً: أغنية تتسامى إلى السماء، ولغزاً تحارُ به الأرض. وأي شيء هناك بين الأرض والسماء يقل الأغنية ويحل اللغز سوى هوانا؟

«لقد لفظنا البحر مرة أخرى إلى هذه الشطآن، وما نحن سوى موجةٍ أخرى من موجاته، دفع بنا لنردد كلامه، ولكن كيف لنا أن نقوم بذلك، ما لم نحطم تناغم قلوبنا على الصخر والرمل؟

«تلك هي شريعة البحر والبحارة، فإذا أنت أردت الحرية كان

عليك أن تحول حاجات الحياة إلى ضباب. إن ما لا شكل له ينشد أبداً أن يكون ذا شكل، حتى السديم الذي لا يُعد، يود أن يتحول إلى شموسٍ وأقمار. ونحن الذين طلبنا الكثير وعدنا الآن إلى الجزيرة قوالب صلبة، علينا أن نصبح ضباباً مرة أخرى، ونأخذ في التعلم من البدء. وأي شيء هناك ينمو ويشهق في الأعالي إلا وهو يتحطم عند الهوى والحرية.

«سنظل بعد اليوم، وإلى الأبد، ننشد الشطآن التي نملك فيها أن نتغنى، ونجد عليها من يستمع إلينا. ولكن ما القول في الموجة التي تتحطم ولا من أذنٍ تسمع تحطمها؟ إن ما يحتضن أسانا الأعمق ويغذيه هو تلك الأنغام التي لا يسمعها أحد، وهذه الأنغام أيضاً هي التي تحفر في قرارة أرواحنا لتصوغ مصائرنا وتقولبها».

وعند ذلك تقدم أحد بحارته وقال: «لقد قدت أيها المعلم حنيننا إلى هذا المرفأ، وها نحن وصلنا، ومع ذلك تتحدث عن الأسى والقلوب التي ينتظرها التحطم».

أجابه قائلاً: «ألم أتحدث عن الحرية، وعن الضباب الذي هو حريتنا الكبرى؟ ومع ذلك، فإني بألم حججتُ إلى جزيرة مولدي حتى كما لو كنت طيف ذبيح جاء يركع أمام أولئك الذين ذبحوه».

وتكلم بحار آخر وقال: «ها هي الجماهير على الشاطئ. لقد تنبأت، في صمتها، حتى عن يوم قدومك وساعته، واجتمعت من حقولها وكرومها، لانتظارك، تعبيراً عن حبها واشتياقها».

وألقى المصطفى من بعيد، بنظرة على الجماهير، فعاودت قلبه ذكريات حنينها إليه، وصمت.

وارتفعت لحظتئذ صرخة من أعماق الشعب، وكانت صرخة ادكارٍ واستعطاف.

ونظر إلى بحارته وقال: «وما الذي أتيت به إليهم؟ صياداً كنت أنا في أرض نائية. وقد أفرغت بعزم وتصميم جعبتي من السهام الذهبية التي قدموها إلي، غير أني لم آتهم بألهية ما، ولم أتبع السهام، ربما كانت الآن قد انتشرت تحت الشمس مع ريش النسور الجريحة التي لا تهوي على الأرض. ولربما هوت رؤوس السهام بين أيدي أولئك الذين هم في حاجة إليها، لينالوا بها خبزاً وخمراً.

«أنا لا أعرف ما حل بها وهي تطير، ولا أين طارت، غير أني أعرف أنها مالت وهي في السماء.

«حتى ولو كان الأمر كذلك، لا يزال الحب ملء يدي، وأنتم يا بحارتي لا تزالون توجهون شراع رؤيتي في البحر، ولن أكون أبكم. سوف يرتفع صراخي حين تضغط يد الفصول على عنقي، وسأغني كلماتي حين تلتهب شفتاي».

وسرى الاضطراب إلى قلوبهم، وهو يقول لهم هذه الأشياء، وتكلم أحدهم قائلاً: «علمنا أيها المعلم كل شيء! ربما أدركنا ما تقول لأن دمك يجري في عروقنا، وأنفاسنا من عبق طيبك».

عند ذاك أجابهم، والريح تهب في صوته، وقال: «أتراكم جئتم بي إلى جزيرة مولدي لأكون معلماً؟ أنا ما زلت حتى الآن خارج قفص الحكمة وإني لصغير السن، طري العود إلى درجةٍ لا تتيح لي أن أتكلم عن أي شيء، إلا عن نفسي التي ستظل إلى الأبد، النداء العميق للعميق.

«دعوا ذاك الذي يبتغي الحكمة، ينشدها في زهرة الأقحوان الأصفر، أو في حفنة من الطين الأحمر. فأنا ما زلت حتى الآن المغني، وسأغني جمال الأرض، وحلمكم الضائع الذي يتنزه النهار كله بين رقدة اليقظة ورقدة الكرى، غير أني لن آلو تحديقاً إلى البحر».

ودخلت السفينة المرفأ، وبلغت الشط، وهكذا وصل إلى جزيرة مولده، ووقف مرة أخرى بين أهله، وارتفعت صرخة عالية من أعماق قلوبهم، اهتزت لها صحراء حنينه في قرارة سريرته.

وخيم عليهم الصمت وهم يتوقعون سماع كلماته، ولكنه لم يستجب لهم، لأن كآبة الذكرى أفعمت نفسه، وقال في سره: «ألم أقل إنني سأغني؟ ها أنا لا أملك إلا أن أفتح شفتي، ولصوت الحياة أن يغدو ويروح مع الريح لينعم بالفرح ويعين عليه».

وعند ذاك، تقدمت كريمة، تلك الصبية التي كانت تلعب معه في حديقة أمه، وقالت: «أخفيت عنا وجهك إثني عشر عاماً، ومنذ إثني عشر عاماً ونحن نتلهف لسماع صوتك».

ونظر إليها برقة متناهية، لأنها هي التي أطبقت جفون والدته حين أقلتها أجنحة الموت البيضاء إلى السماء.

ثم أجاب قائلاً: «إثنا عشر عاماً؟ قلت: منذ اثني عشر عاماً يا كريمة؟ أنا لا أقيس حنيني بمقياس المجرة، ولا أرجع عمق الصدى منها، وذلك لأن الحب عندما يكون حب حنين يستنفد مقاييس الزمن، وترجيعاته.

«هنالك لحظات تحمل دهوراً من فراق، والنوى مع ذلك ليس إلا ضنى الروح، وربما نحن لم نبتعد قط عن بعضنا».

ونظر المصطفى إلى الناس، وأبصر جمعهم كله، شيباً وشباناً، هزالى ومعافين، أولئك الذين لفحتهم الشمس والريح، والذين تبدو عليهم نضرة النعيم، ورأى على وجوههم شعاعاً من الشوق والسؤال.

وتكلم أحدهم فقال: «لقد خيبت الحياة، أيها المعلم، آمالنا ورغائبنا، خيبة مريرة، وإن قلوبنا لواجفة، فلا ندرك بعد شيئاً. أرجوك أن ترفه عنا، وتكشف لنا معاني أحزاننا».

واختلج قلبه بالرأفة وقال: «الحياة أقدم من جميع الكائنات الحية، حتى الجمال تجنّح قبل أن يولد الجميل على الأرض، والحقيقة منذ كانت حقيقة، عُرفت ووجد من تفوه بها.

«الحياة تتغنى في صمتنا، وتحلم في كرانا، وحتى عندما نُغلب على أمرنا ونهوي، تظل الحياة سامية معتلية عرشها. وعندما نبكي، تبسم الحياة للنهار، وتكون حرة حتى عندما نجر سلاسل عبوديتنا.

«كثيراً ما نطلق على الحياة أفظع النعوت والأسماء، عندما

نكون نحن أنفسنا في ظلمة ومرارة، وكثيراً ما نحسبها جوفاء لا جدوى فيها، عندما تتيه أرواحنا ضالة في القفار الجرداء، وتكون قلوبنا سكرى بخمرة الحرص والجشع.

«الحياة عميقة وسامية ونائية غامضة، وإنها مع ذلك لقريبة، وإن كان نظركم الواسع لا يستطيع أن يبلغ إلا أقدامها، وإن ظل ظلكم يعترض طلعتها، وإن كان نفس نفسكم لا يبلغ إلا قلبها، وكان صدى أدق همسة منكم يتحول إلى ربيع وخريف في صدرها.

والحياة مقنَّعة ومخبأة، تماماً كما هي روحكم الكبرى مقنعة وخافية. عندما تتكلم الحياة، تتحول مع ذلك الرياح جميعها إلى كلمات، وحين تتكلم ثانية، تتحول البسمات على شفاهكم، والدموع في عيونكم، إلى كلمات أيضاً. وعندما تتغنى يسمعها الصم وترتفع بهم إلى سمائها، وحين تقبل ماشية يهلل لها ذوو الأبصار المكفوفة، وتأخذهم الدهشة، ويتبعون خطاها في رعدة وذهول».

وانقطع عن الكلام، وغمر الناس صمت شامل، وارتفع في فضاء ذلك الصمت نشيدٌ لا يسمع، وسرّي عن الحضور ما كانوا فيه من هم وضيق.

2

.. وكان منه أن تركهم، وسلك الطريق القويم الذي يقود رأساً إلى حديقته التي كانت من قبل حديقة أمه وأبيه، وفيها كانا يرقدان كما كان يرقد أجدادهما.

وكان هناك أولئك الذين سيأتون من بعده، ورأى بأم عينه أنها المقر الأخير، وأنه وحيدٌ فيها، إذ لم يبق ثمة أحد من أقاربه يحتفل بقدومه ويقيم مأدبة الترحيب به على طريقة أهله.

إلا أن ربّان سفينته نصحهم قائلاً: «دعوه يتابع طريقته في الحياة، وتحملوه، لأن خبزه خبز الوحدة، وفي كأسه خمرة الذكرى التي يحتسيها وحده».

وقفل بحّاروه راجعين لأنهم كانوا يعرفون أن أمره كما أنبأهم به ربّان السفينة، وكبح أولئك الذين تجمعوا على الشط من اندفاعهم نحوه وعادوا برمتهم من حيث أقبلوا.

ولكن كريمة وحدها تبعته، بخطى وئيدة، وفيها توقٌ إلى وحدته وذكرياته، ولم تقل شيئاً، إلا أنها حولت وجهة سيرها نحو بيتها الخاص، وفي الحديقة، في ظل اللوزة بكت، ولم تدر لمَ تبكي.

3

وجاء المصطفى، ولقي حديقة أمه وأبيه، ودخلها، وأغلق بوابتها بحيث لا يستطيع أحد أن يلجها بعده.

وأقام أربعين يوماً وليلة وحده في ذلك المنزل وتلك الحديقة ولم يفد عليه أحد، إذ كانت مقفلة، والكل يعرفون أنه متفرد، وحيد.

وعندما انتهت الأيام الأربعون بلياليها فتح المصطفى البوابة، وأصبح في مستطاع الناس أن يدخلوا.

وجاءه تسعة رجال ليقيموا معه في الحديقة: ثلاثة بحارة من سفينته، وثلاثة ممن كانوا يخدمون في المعبد، وثلاثة من رفاقه في اللعب أيام كانوا صبية معاً. وهؤلاء كانوا تلامذته.

وذات صباح، جلس تلامذته حوله، وكانت عيناه تأتلقان بذكرياتٍ بعيدةٍ، وتهيمان في أقاصٍ نائية، وخاطبه، أول من خاطبه، ذلك التلميذ الذي كان يدعى «حافظ»: «حدثنا يا معلم عن مدينة أورفليس، وعن تلك الأرض التي أقمت فيها تلك السنوات الإثنتي عشرة».

بقي المصطفى صامتاً، وألقى ببصره بعيداً على الروابي، والمدى الأثيري الرحب، وبدا صمته مشحوناً بصراع داخلي.

ثم قال: «يا أصدقائي ويا رفاق طريقي، ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين».

«ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تزرع، وتشرب مما لا تعصر».

«ويل لأمة تحسب المستبد بطلاً وترى الفاتح المدلّ رحيماً».

«ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها، وتعنو لها في يقظتها».

«ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة، ولا تفخر إلا بالخرائب، ولا تثور إلا وعنقها بين السيف والنطع».

«ويل لأمة سائسها ثعلب، وفيلسوفها مشعوذ، وفنها فن الترقيع والتقليد».

«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير، لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير».

«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين، ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير».

«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء، وكل جزء يحسب نفسه فيها أمة».

4

وقال أحدهم: «حدثنا عن هذا الذي يجيش في صدرك الآن». فنظر إلى مخاطبه ذاك، وارتفع في صوته نغم كأنه كوكب يتغنى، وقال:

«عندما تكون صامتاً مصغياً إلى ذاتك العميقة، في حلمك المستيقظ، تنثال أفكارك انثيال الثلوج المندوفة، وتتهاوى وتنتشر وتلف أصداء فضائك بصمت أبيض.

«وأي شيء هي الأحلام المستيقظة سوى غمام يبرعم ويتفتح في شجرة سماء قلبك؟ وأي شيء هي أفكارك سوى الأوراق التي تذروها رياح قلبك على الروابي وحقولها؟

«وكما أنت تنتظر السلام حتى يتخذ في سريرتك ما لا شكل له شكلاً، كذلك لا بد أن يتجمع الغيم ويتراكم إلى أن تشكل الأنامل المباركة أمنيته الدكناء، في بلور صغير من شموس وأقمارٍ ونجوم».

وتناول الحديث عند ذاك سركيس، وهو الذي خالجه بعض الشك، فقال: «ولكن الربيع سيأتي، وتذوب ثلوج أحلامنا وأفكارنا، ثم لا يبقى منها أثر».

فأجابه قائلاً: «عندما يأتي الربيع ليلتقي حبيبته في الغياض والكروم الهاجعة، ستذوب الثلوج في الحقيقة، وتجري سواقي تنشد النهر في الوادي، وتحمل الكؤوس لسقيا أشجار الآس والغار.

«وكذلك هو شأن الثلج في قلبك، فإنه سيذوب عندما يأتي ربيعك، وكذلك يجري سرك سواقي تنشد نهر حياتك في الوادي، وسيلف النهر سرك ويحمله إلى الخضم الكبير».

«ستذوب جميع الأشياء حين يأتي الربيع وتتحول إلى أناشيد. حتى الكواكب، وقطع الثلج التي تنهال ببطء على الحقول الفسيحة، ستذوب في سواقٍ تترنم. وعندما تشرق شمس «طلعته» على الأفق الأرحب، أيُّ رواء متجمد لا يتحول بعد ذاك إلى أغنية منسابة؟ وأي امرئٍ منكم لا يود أن يكون ساقي الآس والغار؟.

«إنه لم يمضِ عليكم سوى ليلة واحدة، كنتم قبلها تتحركون مع البحر الهائج، بلا ذات ولا شاطئ. ثم نسجت لكم الريح، وهي أنفاس الحياة، شراعاً من نورٍ على محياها، ثم جمعتكم يدها ووهبتكم شكلاً، وتطلعتم إلى الأعالي برأس شامخ. ولكن البحر تبعكم من بعد، وظلت أغانيه تفعم قلوبكم. وسيظل إلى الأبد يحنو عليكم، وإن نسيتم ذوي قرباكم، وإلى الأبد سيظل يناديكم».

«ولسوف تتذكرون على الدوام أعماق فؤاده البارد، في متاهاتكم بين الجبال والصحراء، وإنكم، وإن لم تعرفوا أغلب الأحيان، لأي معنى تتوقون، فإنما أنتم تتوقون في الحقيقة، إلى سلامه الرحب الرتيب».

«وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ عندما يتراقص المطر أوراقاً متناثرة على الرابية في الغابة والحديقة، وعندما ينهال الثلج

بركة ووفاء، وعندما تقودون قطعانكم في الوادي إلى النهر، وعندما تلتقي في حقولكم الغدران كأنها سواقٍ من لجين، وتلتحق بالحلل السندسية في المروج، وعندما تعكس الأنداء في خمائلكم صورة السماء على الأرض، وعندما يحجب الضباب في مروجكم لدى المساء، طريقكم بحجاب شفاف، يكون البحر في هذه الأويقات كلها، معكم شاهداً على تراثكم، ناشداً حقه في حبكم».

«إنه انثيال الثلج في أعماقكم يهبط على البحر».

5

وذات صباح، عندما كانوا يتمشون في الحديقة، ظهرت وراء البوابة امرأة، وكانت كريمة التي أحبها المصطفى كأخت في أيام صباه، ووقفت دون أن تسأل شيئاً، أو تقرع البوابة بيدها، وإنما كانت تحدق سادرة كئيبة في أرجاء الحديقة.

ورأى المصطفى الشوق في جفنيها، فمشى بخطى وئيدة ناعمة، نحو الجدار، وفتح لها البوابة فدخلت، ورحب بها.

ثم أخذت المرأة تخاطبه قائلة: «ما الذي حملك على هجرنا جميعاً، فلا نملك بعد أن نستنير بضياء طلعتك، ونحن الذين أحببناك، وانتظرنا بلهفة عودتك وسلامتك؟ إن الشعب يناديك الآن، ويود سماع حديثك، وأنا رسولته إليك، جئت ألتمس منك أن تظهر نفسك للناس، وأن تتحدث إليهم عما اختزنت من حكمة، وأن تجبر قلب الكسير، وتنير أذهاننا التي هيمن عليها جنون الظلمات».

حملق فيها، وقال: «إذا كنتِ لا تحسبين الناس كلهم حكماء، فلا تناديني بوصفي حكيماً، فأنا ثمرة فجة، لا أزال عالقاً بالغصن، وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتح.

«وإياك أن تحسبي أحداً منكم مجنوناً، لأننا لسنا، في الحقيقة، حكماء ولا مجانين. نحن أوراقٌ خضرٌ على شجرة الحياة، والحياة نفسها فوق الحكمة، وهي قطعاً فوق الجنون».

«وأنا ، هل هجرتكم، وعزلت نفسي عنكم في الحقيقة؟ ألا تعلمين أن ليس ثمة من بعد سوى ذاك الذي لا تملك الروح أن تقطعه بالخيال؟ وعندما تقطع الروح تلك المسافة، تصبح هذه المسافة نفسها نغماً في الروح؟

«إن المسافة التي تفصلكم عن جاركم القريب الذي لا تصادقونه أبعد في الحقيقة، من تلك التي تفصلكم عمن تحبون، وهو يقيم وراء الأرضين السبع والسماوات السبع».

«ذلك بأن الأبعاد لا وجود لها في التذكار، والمسافة الشاسعة إنما تكون في النسيان، وهي مما لا يستطيع صوتك ولا عينيك اختصاره».

«هنالك طريق سرية بين شطآن المحيطات وذروة أعلى الجبال، عليكم أن تقطعوها، في اللحظة التي تتحدون بها مع أبناء الأرض».

«وهنالك طريق خفية بين معرفتكم وفهمكم عليكم أن تكتشفوها في اللحظة التي تتحدون بها مع الإنسان، ومن ثمة مع أنفسكم».

«هنالك هوة سحيقة بين اليد اليمنى التي تعطي، واليد اليسرى التي تأخذ. ولا سبيل إلى إزالة هذه الهوة بينهما إلا بحملهما معاً على العطاء والأخذ في آنٍ واحدٍ، لأنكم لا تستطيعون التغلب على تلك الهوة إلا عندما تعرفون أن ليس هناك ما تأخذون ولا ما تعطون.

«الحق إن أبعد مسافة إنما هي تلك التي تقوم بين رؤياكم في النوم ويقظتكم، وبين ما هو ليس إلا حاجة وما هو رغبة».

«ولا تزال هنالك طريق أخرى عليكم أن تقطعوها حين تصبحون مع الحياة شيئاً واحداً، غير أني لا أقول شيئاً عن تلك الطريق الآن، وأنا أرى أنكم أصبحتم متعبين من السفر».

6

ومضى مع المرأة، هو والتسعة، حتى بلغ ساحة السوق، وتحدث إلى الناس، إلى أصدقائه وجيرانه، وكان الفرح يغمر قلوبهم ويظهر على جفونهم.

ثم قال: «أنتم تكبرون في النوم، وتحيون أكمل حياتكم في أحلامكم، وذلك لأن كل أيامكم تنفق في الشكر لما نلتم خلال هدأة الليل.

«وإنكم لتفكرون أغلب الأحيان وتقولون عن الليل إنه وقت الراحة، مع أنه في الحقيقة وقت السعي والتحصيل».

«النهار يزودكم بقوة المعرفة، ويعلم أناملكم الحذق في فن الأخذ، ولكن الليل هو الذي يقودكم إلى خزانة كنز الحياة».

«الشمس تلقن جميع الأشياء أن تغذي في نفسها الحنين إلى النور، ولكن الليل هو الذي يرفعها إلى النجوم».

«إنها هدأة الليل التي تنسج، في الحقيقة، ثوب العرس على الأشجار في الغابة، والأزهار في الحديقة، وتمد من ثمة المائدة السخية وتعد غرفة العرس إعداداً مغرياً، وفي جو ذلك الصمت القدسي يتكون الغد في رحم الزمن».

«وهكذا تجدون القوت والكفاية في أنفسكم، ومن خلال

سعيكم، ويظل لوح الأحلام ممدوداً، وغرفة العرس معدة، وإن محت اليقظة في الفجر الذاكرة».

وسكت برهة من الزمن، وهم ينتظرون عودته إلى الكلام، ثم نطق ثانية، وقال: «أنتم أرواح وإن كنتم تتحركون في أبدان، وإنكم لكالزيت الذي يحترق في الظلام، شعلٌ، وإن حملتم في مصابيح».

«وإذا أنتم لم تكونوا شيئاً سوى أجساد، فإن موقفي أمامكم وخطابي إياكم، لن يكون سوى هراء، كما لو كان ميت يخاطب أمواتاً. ولكن الأمر على غير ذلك، فكل ما هو خالد فيكم إنما هو حر آناء الليل وأطراف النهار، ولا سبيل إلى الحجر عليه وتقييده، لأن تلك هي مشيئة القدير الأعلى. أنتم نفسه الذي لا يقبض عليه ولا يمكن أن يزج في قفص، شأنكم في ذلك شأن الريح، وأنا أيضاً نفسُ نفسه».

وانصرف من بينهم يمشي وئيداً، وولج حديقته من جديد. ولكن سركيس الذي خامره بعض الريب فيما سمع، تكلم قائلاً: «وما القول في القبح أيها المعلم؟ إنك لا تذكر القبح أبداً في أحاديثك».

أجابه المصطفى، وكانت كلماته تنهال كالسوط، وهو يقول: «يا صديقي! أنّى لامرئٍ أن يدعوك بخيلاً إذا هو مر بمنزلك ولم يقرع بابك؟

«ومن هو هذا الذي يزعم أنك غافلٌ وأصم إذا هو كلمك بلسان غريب لا تفهم منه شيئاً»؟

«أليس ما تحسبه قبحاً هو ذاك الذي لم تجهد قط في بلوغه، ولا تلهفت قط إلى ولوجه؟

«إذ كان القبح شيئاً ما، فما هو في الحقيقة، إلا قشرة الصدأ على عيوننا، والوقر في آذاننا».

«لا تدعُ شيئاً قبيحاً يا صديقي، سوى الخوف الذي يخالج روحاً ما حيال ذكرياتها الخاصة».

7

وفيما كانوا جالسين ذات يوم في ظلال أشجار الحور، تكلم أحدهم قائلاً: «أنا يا معلم خائف من الزمن. إنه يمر بنا، ويسلبنا صبانا، فما هو الشيء الذي يعطيه بدلاً منه؟».

أجابه قائلاً: «خذ الآن حفنة من التراب. قد تجد فيها بذرة، وقد تجد دودة، فإذا كانت يدك كبيرة وقوية بما فيه الكفاية فإن في وسع البذرة أن تصير إلى غابة، والدودة إلى جمع من الملائكة. ولا تنس أن السنين التي حولت البذور إلى غابات، والديدان إلى ملائكة، إنما يعود أمرها كله إلى هذا «الآن» كل السنين قائمة في «الآن» هذا نفسه».

«وأي شيء هي فصول الأعوام سوى أفكارنا تتغير وتتبدل؟ الربيع يقظة في صدركم، والصيف ما هو إلا اعتراف بأثماركم، والخريف أما هو العتيق من غنائكم لترنيمة لا تزال طفلة في كيانكم؟ وهل الشتاء، أنا أسألكم، سوى رقدة طويلة تفعمها الأحلام بالفصول الأخرى كلها؟».

ونظر عند ذاك مأنوس، التلميذ البحاث، إلى ما حوله، ورأى أغراساً مزهرة تعلقت على شجرة جميز، وقال: «ها هي الطفيليات يا معلم. ما تقول فيها؟ إنها لصوص ذات أجفان نهكها التعب، تسلب النور من أبناء الشمس أولي العزم، وتتباهى بالنسغ الذي يتدفق في أغصان هؤلاء وأوراقهم».

أجابه المصطفى قائلاً: «كلنا يا صديقي طفيليات، إننا نحن الذين نحول المدر إلى حياة نابضة، لسنا أرقى من أولئك الذين يأخذون الحياة مباشرة من المدر، دون أن يعرفوا المدر».

«هل لأم أن تقول لطفلها: «أنا أردك إلى الغابة، أمك الكبرى، لأنك ترهقني قلباً ويداً؟».

«أم هل للمغني أن يزجر الأغنية التي ينشدها قائلاً: «عودي الآن إلى كهف الأصداء الذي أتيت منه، لأن إنشادك يستهلك أنفاسي».

«وهل للراعي أن يقول للفصيل الذي أدرك عامه الأول: «ليس لدي مرعى أستطيع أن أقودك إليه، وعليك الآن أن تنفصل عن أمك، وتضحي بنفسك في سبيل هذه القضية»؟

«أصخ ياصديقي! كل هذه أسئلة تلاقي أجوبتها قبل أن تطرح. وهي تتحقق مثل أحلامك قبل أن تنام».

«إننا نعيش بعضنا على بعض وفقاً للشريعة القديمة السرمدية دعنا نعش هكذا في نعيم الحب. وإننا لننشد بعضنا البعض في وحدتنا، ونتسكع على الطريق، حين لا يكون لدينا موقدة نجلس إلى جانبها».

«إن أوسع طريق، يا أصدقائي وإخواني، إنما هو طريق رفاقكم من الناس».

«وهذه الأغراس التي تعيش على الشجرة، تمتص حليب الأرض

أثناء هدأة الليل الناعمة، والأرض بدورها ترضع ثدي الشمس أثناء حلمها الهادئ».

«والشمس، شأنها شأنكم، وشأني وشأن كل كائن، تجلس مساوية لغيرها في الشرف، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المفتوح أبداً، والمائدة الممدودة أبداً».

«يا صديقي مأنوس، كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو كائن. وكل ما هو كائن يعيش بالإيمان الذي لا ساحل له، على رحمة العلي الأعلى».

8

وذات صباح، والسماء لم تأتلق بعد بالنور، راح الجميع يتنزهون في الحديقة، ويتأملون المشرق، وهم صامتون حيال الشمس الطالعة.

وأومأ المصطفى، بعد برهة، بيده وقال: «ليست صورة شمس الصباح في قطرة الندى، أقل من الشمس، وانعكاس الحياة في روحكم ليس أقل من الحياة».

«إن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد، وأنتم تعكسون الحياة، لأنكم أنتم والحياة شيء واحد».

«وعندما يخيم الظلام عليكم، قولوا: «الظلام فجر لمّا يولد بعد، وعندما يلفني الليل بجلبابه، فإن الفجر يولد في نفسي على نحو ما يولد فوق الروابي».

«وليست قطرة الندى التي تتداح كرة في شفق الزنبق، غير شبيهة بكم، وأنتم تجمعون روحكم في قلب الله.

«وإن خطر لقطرة الندى أن تقول: «ولكني سأظل بعد ألف سنة قطرة ندى» قولوا لها: «ألا تعلمين أن نور تلك الأعوام كلها يشرق في دائرتك؟».

9

وذات مساء هبت عاصفة كبيرة على المكان، وذهب المصطفى وتلامذته التسعة، خلال هبوبها، وجلسوا حول النار هادئين، صامتين.

ثم تكلم أحد التلامذة قائلاً: «أنا وحيد، يا معلم! وحوافر الزمن تمر على صدري ثقيلة الوطء، بطيئة الخطى».

وقف المصطفى، وانتصب في وسطهم، وقال بصوت يشبه عصف الريح الهائجة: «وحيد! وماذا في الأمر؟ جئت إلى هذا العالم وحيداً، وستمضي وحيداً في الضباب».

«إشرب كأسك إذن، وأنت صامت، وحيد. لقد أعطت أيام الخريف شفاهاً أخرى، أقداحاً أخرى، وملأتها بخمرة مرة وعذبة كما سبق لها أن ملأت كأسك».

«إشرب كأسك وحدك، وإن كان لها طعم دمك ودموعك، واحمد الحياة على نعمة الظمأ، فإن قلبك من غير ظمأ ليس إلا شطاً لبحرٍ قاحل، لا نشيد فيه، ولا جزر ولا مد».

«اشرب كاسك وحدك، واشربها بفرح».

«ارفعها فوق رأسك، وعب منها نخب أولئك الذين يشربون وحدهم.

«لقد حدث لي مرة أن سعيت في عشرة الناس، وجلست معهم

إلى الموائد، وشربت معهم كثيراً، ولكن خمرهم لم تصعد إلى رأسي، ولا سرت في جوفي، وإنما هوت فحسب إلى أقدامي، وتخلت عني حكمتي مغاضبة، وختم على قلبي وأصبحت مغلقاً، ولم يبق سوى قدمي معهم في دخانهم».

«ثم لم أسعَ من بعد قط في معاشرة الناس، ولا شربت الخمر معهم على مائدتهم».

«ولذلك أقول لك: ماذا وإن راحت حوافر الزمن تمر على صدرك ثقيلة الوطء؟ إن من الخير لك أن تشرب كأس أساك وحيداً، فستشرب كاس نعيمك وأنت وحيد أيضاً».

10

وذات يوم أقبل فردوس الإغريقي يتمشى في الحديقة، فعثرت قدمه بحجر، وسخط لذلك، ثم دار والتقط الحجر، وقال بصوت خافت: «يا لك من شيء ميت في طريقي!» وقذف به بعيداً.

وقال المصطفى المختار، الحبيب: «لماذا تقول: يا لك من شيء ميت؟ هل قضيت زمناً طويلاً في هذه الحديقة على هذه الحال، وأنت لا تعرف أن ليس فيها شيء ميت؟ إن جميع الأشياء هنا تحيا وتتألق بضياء النهار وجلال الليل. أنت والحجر شيء واحد. هنالك فرق وحيد في نبضات القلب، فإن قلبك ينبض على نحو أدق قليلاً. أليس كذلك يا صديقي؟ إلا أنه لا ينطوي على هدوء الحجر.

«يمكن أن يكون لخفقه نغم آخر، غير أني أقول لك: إذا أنت سبرت أغوار روحك وقست أعالي الفضاء، فإنك لن تسمع سوى أغنية واحدة، والحجر والنجم يترنمان بتلك الأغنية معاً في جوقة متكاملة منسجمة.

«وإذا كانت كلماتي لا تبلغ فهمك، فدعها إذن إلى فجر آخر. وإذا كنتُ قد لعنت هذا الحجر الذي عثرت به في حمى عماوتك، فهل تلعن النجم لو أن رأسك ارتفع حتى اصطدم به في السماء؟ ولكن اليوم الذي تجمع به الحجارة والنجوم على نحو ما يجني الولد زنابق الوادي، آتٍ قريباً، وعند ذاك ستعلم أن جميع هذه الأشياء مفعمة بالطيب والحياة».

11

وعندما بلغت أصوات الأجراس في المعبد آذانهم، وكان ذلك في اليوم الأول من الأسبوع، تكلم أحدهم وقال: «إنا لنسمع في جوارنا يا معلم، كلاماً كثيراً عن الله، ماذا تقول في شأنه، ومن هو في حقيقة أمره؟».

ووقف أمامهم كأنه شجرة شابة لا تخشى الريح ولا العاصفة، وأجاب قائلاً: «فكروا الآن، أيها الرفاق الأحباء، في قلب يحوي قلوبكم جمعاء، في حب يحيط بكل حب يخالجكم، في روح تغلف أرواحكم كلها، في صوت ينطوي على أصواتكم جميعها، في صمت أعمق من كل صمت تمرون به، فيما هو سرمدي».

«ثم حاولوا أن تدركوا في كمال ذاتكم جمالاً أبهى من جميع الأشياء البهية، ونشيداً أرحب من أناشيد البحر والغابة، وجلالاً يقيم على عرشٍ، كوكبة الجبار أمامه ليست سوى موطئ قدم، وبيده صولجان ليست حياله نجوم الثريا سوى وميض لقطرات ندى».

«لقد قصرتم نشدانكم دوماً على المأكل والمأوى، على اللباس والأثاث، فانشُدوا الآن «واحداً» لا هو بهدف لسهامكم، ولا بكهف حجري يقيكم عوادي الطبيعة».

«وإذا كانت كلماتي صخرة ولغزاً، فانشُدوا، وليس هذا اقل ما يطلب إليكم، أن تخشع قلوبكم وتتكسر، وأن تسوقكم

ضراعاتكم إلى حب العلي الأعلى وحكمته، إلى ذلك القدير الذي يدعوه الناس: الله».

وخيم الصمت عليهم جميعاً، وسرت الحيرة إلى قلوبهم، واضطربوا في قرارة نفوسهم، وأشفق عليهم المصطفى، ونظر إليهم برقة وقال: «لنقف الآن عن الكلام في شأن العلي الأعلى، رب الأرباب. ولنتكلم عن الأرباب من جيرانكم وإخوانكم، وعن عناصر الطبيعة التي تثور حول منازلكم وفي حقولكم».

«إنكم لتودون أن ترتفعوا بالخيال إلى النعيم، وتحسبون ذلك علواً، وتودون أن تعبروا البحر الرحيب وتدعون أن ذلك مسافة شاسعة، غير أني أقول لكم إنكم تبلغون، إذ تزرعون بذرة في الأرض، مكاناً أعلى، وعندما تمجدون رواء الصباح لقريبكم، تقطعون بحراً أرحب».

«إنكم تترنمون أكثر الأحيان باسم الله السرمدي، غير أنكم لا تسمعون، في الحقيقة، النشيد الذي تترنمون به. هلا أصغيتم إلى أغاني العصافير، إلى أنين الأوراق التي تنتزعها الريح عن الأغصان حين تهب عليها، ولا تنسَوا، يا أصدقائي، أن هذه لا تغنّي إلا عندما تفارق الأغصان»!.

«وإني لأكرر عليكم ما أمرتكم به، أن لا تتكلموا عن الله الذي هو الكل في الكل، من غير وعي أو تقدير، ولكن أحرى بكم أن يتحدث بعضكم عن بعض، ويفهم الواحد منكم الآخر، قريباً لقريب، وإلهاً لإله».

«بمَ يقتات الفرخ في العش إذا هجرته أمه وحلقت في أجواز السماء؟ وأنّى لشقيقة النعمان في الحقل أن تتكامل إذا لم تلقحها نحلة برحيق شقيقة غيرها؟».

«إنكم لا تنشدون السماء التي تدعونها «الله» إلا عندما تضيعون في ذاتكم الصغيرة. هلا جهدتم في أن تجدوا سبل الرشاد في ذاتكم الكبرى. هلا سعيتم في أن تكونوا أقل كسلاً مما أنتم عليه وأخذتم في تعبيد الطرق»!.

«لقد كان من الأحكم، يا أصدقائي وبحارتي، أن يقل كلامنا عن الله الذي لا نستطيع أن نفهمه، ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض، إذ يتاح لنا أن نتفاهم، وكان بودي أن تعرفوا، مع ذلك، أننا عبق الله وأريج طيبه. نحن الله في الورقة، في الزهرة، وأغلب الأحيان في الثمرة».

12

وذات صباح، عندما ارتفعت الشمس، تقدم أحد التلامذة، وكان من أولئك الثلاثة الذين لعب معهم في أيام صباه، وقال له: «تهلهل ثوبي يا معلم» وليس لدي غيره، فاسمح لي أن أذهب إلى السوق وأساوم، علّ الحظ يتيح لي أن أحصل على كساء جديد».

حدق المصطفى ملياً إلى الشاب وقال: «أعطني ثوبك» فخلعه الشاب ووقف عارياً في الهجيرة.

وعند ذاك، راح المصطفى يقول بصوت شبيه بالصوت الذي يحدثه مهر يعدو على طريق: «العاري وحده يعيش في الشمس. والساذج وحده يركب الريح. والذي يضيع عن طريقه ألف مرة، هو الوحيد الذي يبلغ منزلاً يطمئن فيه».

«لقد تعب الملائكة من الحاذقين المدرعين بالفطنة. وجاءني البارحة ملاك، لم يأتني إلا البارحة، وقال لي: «خلقنا جحيماً لأولئك الذين يتباهون. أي شيء يمحو المظهر اللماع، ويذيب الشيء حتى يرده إلى جوهره سوى النار؟».

«وقلت: «ولكنكم تخلقون أيضاً، إذ تخلقون الجحيم، شياطين للقيام بأمره». فرد الملاك قائلاً: إنما يقوم على الجحيم أولئك الذين لا تنال منهم النار».

«يا للملاك الحكيم! إنه يعرف سبل الرجال وطرائق أنصاف

الرجال. إنه واحد من أولئك الأبرار الذين يأتون لمعونة الأنبياء حين يوسوس لهم المخادعون الأذكياء. ولا ريب أنه يبتسم عندما يبتسم الأنبياء، ويبكي أيضاً عندما يبكون».

«العاري وحده، أيها الأصدقاء والبحارون، يعيش في الشمس. والربان الذي لا دفة له وحده هو الذي يركب البحر العباب ولا يبالي، وذو النفس المظلمة هو الذي يظلم في الليل ويستيقظ مع الفجر، والوحيد الذي يدرك الربيع هو الذي ينام مع الجذور تحت الثلج».

«ذلك بأنكم تشبهون الجذور، فأنتم بسطاء كالجذور، ولكم مع ذلك حكمة بالغة، هي التي تستقونها من الأرض. وأنتم صامتون، ولكن لكم مع ذلك من أغصانكم التي لما تولد بعد، جوقة الرياح الأربع».

«أنتم واهون، لا شكل لكم، ولكنكم مع ذلك بداية أشجار سامقة جبارة، ومستهل أدواح تناطح السحاب».

«أقول لكم ثانية وأكرر: لستم سوى جذور بين التراب والسماوات المتحركة. وكثيراً ما شاهدتكم ترتفعون لترقصوا مع النور. غير أني رأيتكم أيضاً يخامركم الحياء وأنتم ترتفعون. وكل الجذور يخامرها الحياء. لقد أخفت قلوبها زمناً طويلاً، فلا تعرف بعد ما تصنع بقلوبها».

ولكن نواراً سيأتي. ونوار عذراء لا تعرف الراحة، وسيكون منها أن تحنوَ على الروابي والسهول».

13

وتقدم إليه أحد الذين خدموا في المعبد، ضارعاً وقال: «علمنا يا معلم أن تكون كلماتنا مثل كلماتك، غناء للناس وطيباً عابقاً».

أجابه المصطفى قائلاً: «سوف تسمو على كلماتك، ولكن طريقك ستظل نغماً وأرجاً: نغماً للمحبين وكل من هم أحباء على السواء. وأرجاً لأولئك الذين يودون الحياة في بستان».

«بيد أنك ستسمو على كلماتك إلى ذروة يتناثر فوقها غبار النجوم وستفتح يديك حتى تمتلئا، وعند ذاك ستضطجع وتغفو كما يغفو الفرخ في عش أبيض، وتحلم بالغد كما تحلم البنفسجة البيضاء بالربيع».

«أجل! وستغوص إلى أعمق من كلماتك. ستنشد ينابيع الجداول التائهة، وستكون كهفاً مخبأً يردد أصداء الأصوات الخافتة التي تتعالى في الأعماق، وأنت لا تسمعها الآن».

«ستغوص إلى أعمق من كلماتك، إلى أعمق من كل الأصوات، إلى قلب الأرض، وهناك ستكون وحيداً «معه»، مع ذاك الذي يسير أيضاً على المجرة».

وبعد برهة، سأله أحد التلامذة قائلاً: «حدثنا أيها المعلم، عن «الكون. ما هو؟».

نظر المصطفى إليه ملياً، وشعر بانعطاف حب نحوه، ثم وقف،

ومشى بضع خطوات بعيداً عنهم، ثم عاد وقال: «هنا ، في هذه الحديقة يرقد أبي وأمي، دفنتهما أيدي أحياء. وفي هذه الحديقة ترقد مدفونة بذور الأمس، جاءت بها إلى هنا أجنحة الريح. وسيدفن أبواي هنا ألف مرة، وألف مرة ستدفن البذور هنا. ولذلك سوف نأتي أنا وأنتم وهذه الأزهار معاً لألف سنة في هذه الحديقة، كما نحن الآن، ولسوف «نكون» نحب الحياة، ونحلم بالمدى، ونتسامى نحو الشمس».

«غير أن «الكينونة» الآن، إنما هي أن تكون حكيماً، لا غريباً مع ذلك، عن المجنون، أن تكون قوياً ولكن لا لتسيء إلى الضعيف، وأن تلعب مع الأطفال، لا كوالد بل كرفيق يود أن يتعلم ألعابهم».

«وهي أن تكون بسيطاً ووديعاً مع الطاعنين في السن من الرجال والنساء، وتجلس معهم في ظل السنديانة العتيقة، وإن كنت لا تزال تمشي مع الربيع».

«هي أن تسعى وراء شاعر وإن كان يعيش وراء سبعة أنهر، وتهدأ في حضوره، لا تريد شيئاً، ولا ترتاب في شيء، ولا تنبس شفتاك بسؤال».

«هي أن تعرف أن القديس والخاطئ أخوان توأمان، أبوهما «الملك الغفور» وأن أحدهما ولد قبل الآخر بلحظة فقط، ولذا نحن ننظر إليه على أنه أمير متوج».

«هي أن تتبع الجمال حتى وإن قادك إلى حافة الهاوية، وهو، وإن

كـان مجنجـاً وأنـت بـلا أجنحـة، وإن مـر فـوق الهاويـة، عليـك أن تتبعـه، لأنه حيث لا جمال، لا شيء هناك».

«هـي أن تـكون بستاناً بلا جدران، وكـرمـاً بـلا حـارس، وخزانـة كنز مفتوحة للعابرين».

«هـي أن تـكـون سليباً، مخدوعـاً، مخيبـاً، أجـل! ومضلـلاً، وقـع في الفخ، ومع ذلك كله تنظر من علياء ذاتك الرحبة إلى ما هـو دونـك، وتبتسـم عارفـاً أن ثمـة ربيعـاً لا بـد أن يـأتي إلـى كرمـك لـيرقص فـي أوراقه، وخريفاً لينضـج عنـاقيده، عارفـاً أنـه لـو ظـل لديك شباك واحـد منفتح على الشرق، لن يفرغ منزلك أبداً، عارفـاً أن جميع أولئك الذيـن اعتبروا أشراراً، ولصوصاً، ومحتالين، وغشاشين، إنما هـم إخوتك فـي الفاقه، وأنـك ربمـا كنـت هـؤلاء جميعـاً فـي نظـر أهـل تلـك المدينـة الـلا منظورة، القائمة فوق هذه المدينة».

«والآن أوجه الكلام إليكم أيضاً أنتم ذوي الأيدي البارعـة التـي تصوغ وتوجد جميع الأشياء اللازمة لرفاهية عيشنا في الليل والنهار:

«الكينونة هـي أن تكون حائكاً ذا أنامل تبصر، وعمـاراً واعيـاً للنور والمدى، أن تكـون حراثـاً وتشـعر أنـك تخبـئ كنـزاً فـي كـل بـذرة تزرعـها. أن تـكـون صيـاداً وقناصـاً ذا رأفـة بالسـمكة والطريـدة، وأن تكون إلى ذلك، أرأف بالجائع والمحتاج من بني الإنسان.

«وأقـول فـوق كـل شـيء مـا يلـي: أريـد أن يكـون كـل واحـد منكم، كائناً من كان، شريكاً وعوناً لغيره في تحقيق غايته الطيبة

النبيلة».

«كونوا، يا أصدقائي وأحبائي، شجعاناً لا وديعين، رحاب الصدور لا محدودين محصورين، حتى إذا جاء أجلي وأجلكم كان في الحقيقة، ذاتكم الكبرى».

وانقطع عن الكلام، وخيم على التسعة ظلام دامس، وتحولت قلوبهم عنه، لأنهم لم يفهموا شيئاً مما قال.

وراح الرجال الثلاثة من البحارة يحنون في تلك اللحظة إلى البحر، والثلاثة الذين كانوا يخدمون المعبد، يتوقون إلى سُلُّو حالهم في حرمه، والثلاثة الذين لعبوا معه أيام صباه، يتشوقون إلى ساحة السوق. كان الجميع صماً حيال كلماته، لدرجة أن أصداءها كانت ترجع إليه، كالطيور المتعبة التي فقدت المأوى تحوم بحثاً عن ملجأ.

ومشى المصطفى بضع خطوات نأى بها عنهم في الحديقة، دون أن يقول شيئاً، أو ينظر إليهم.

وراحوا يتشاورون فيما بينهم ويبحثون عن عذرٍ يبرر رغبتهم في الذهاب.

وهنا، انصرفوا، وذهب كل واحد منهم إلى مكانه، وظل المصطفى المختار، الحبيب، وحيداً، فريداً..

14

وعندما أقبل الليل، وضرب سرادقه على الكون كله، توجه نحو المقبرة التي ترقد فيها والدته تحت شجرة الأرز التي كانت تتعالى شامخة، وهناك، أطل طيف نور عظيم على السماء، وائتلقت الحديقة ائتلافة حلية مع صدر الأرض.

وصاح المصطفى، من قرارة الوحدة التي تلف روحه، وقال[1] :

«لقد أثقلت روحي بثمرتها الناضجة. من ترى يأتي ويأخذها ويكون بها مسروراً؟ أما هناك من صائم طيب القلب، كريم النفس، يأتي ويفطر على أول نتاج لي، ويخفف بذلك من عبء خصبي»؟

«إن روحي تتدفق بخمرة العصور. أما هناك من ظامئ يأتي فيشرب»؟

«ها إن هنالك رجلاً وقف على مفترق الطرق، ويداه ممدودتان للعابرين، وقد امتلأتا بالحلي والجواهر، وهو ينادي المارة، قائلاً: «ارثوا لحالي، وخذوا مني. أرجوكم باسم الله العلي العظيم أن تأخذوا مني ما في يدي وتؤاسوني».

«ولكن المارة كانوا ينظرون إليه فقط، وما فيهم من أحدٍ أخذ

---

(1) ورد هذا المقطع بلغة جبران العربية في «المجموعة الكاملة لمؤلفات جبر
«نفسي المثقلة بأثمارها» التي طبعت في مطبعة دار صادر - بيروت.

ما في يده».

«ولو أنه كان متسولاً يمد يده ليأخذ! نعم! يمد يداً مرتعشة ويرجعها فارغة إلى حضنه، لكان خيراً له من أن يمدها ملأى بالعطايا الوافرة، ولا يجد من يتقبلها».

«وها إن هنالك أميراً أيضاً ذا لطف وأريحية، ضرب خيامه الحريرية بين الجبل والصحراء، وأمر خدمه أن يشعلوا النار علامة يهتدي بها الغريب والتائه، كما وجه عبيده إلى الأمكنة النائية والطرق الموحشة يراقبونها بحثاً عن الضيوف، ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً».

«ولو أن ذلك الأمير كان رجلاً عادياً لا يعرف من أين أتى ولا كيف أتى، راح ينشد القوت والمأوى، بل لو كان هو نفسه التائه المعدم الذي لا يملك سوى أسماله وكشكوله، لكان خيراً له، وللقي عند انسدال الظلام أشباهه من الشعراء والمشردين، وشاركهم في تسولهم وتذكاراتهم وأحلامهم».

«وها إن هنالك ابنة ملك عظيم، استيقظت من سباتها وارتدت رداءها الحريري، وتحلت بلآلئها وجواهرها، ونثرت المسك على شعرها، وغمست أناملها في العنبر، ثم نزلت من برجها العالي إلى حديقتها، حيث احتفل الندى بمقدم حذائها الذهبي».

«وراحت ابنة الملك العظيم تنشد الحب، في الحديقة، خلال هدأة الليل، ولكن أحداً من أبناء مملكة أبيها الواسعة، لم يكن يحبها».

«لقد كان من الأفضل لها أن تكون ابنة حراث، جارة نعجتها

في حقل، وعند المساء تعود إلى منزل أبيها، وغبار الطريق يعلو قدميها وعبير الكروم يفوح من ثنايا ردائها، حتى إذا اقبل الظلام، وخيم بأجنحته ملاك الليل على العالم، تتسلل إلى نعجتها وتتسلّ بها إلى نهر الوادي حيث ينتظرها حبيبها».

«بل إنها لتود لو كانت راهبة في دير يحترق فؤادها بخوراً، ويتصاعد طيباً مع الريح، وتفني روحها شمعة في نور يتصاعد نحو نور أسمى، برفقة جميع أولئك الذين يتعبدون والذين يحبُّون ويُحَبّون».

«كان الأفضل لو أنها امرأة من الطاعنات في السن، تجلس تحت الشمس وتتذكر ذاك الذي شاركها أيام صباها».

واشتد ظلام الليل، وأربد وجه المصطفى مع الليل، وأمست روحه غيمة مثقلة، فصرخ ثانية:

«ناءت روحي بعبء ثمارها الناضجة».

ناءت روحي المثقلة بثمارها.

من ذا الذي يأتي الآن فيقتات ويشبع؟

إن روحي لتفيض بخمرتها.

من ذا الذي يستقي الآن ويحتسي ويبترد من رمضاء الصحراء؟

«ليتني كنت شجرة لا زهر لها ولا ثمر.

فإن عناء الخصب أمرّ من القحط.

وعذاب الموسر الذي لا يجد من يأخذ منه.

أكبر من عذاب المتسول الذي لا يجد من يعطيه».

«ليتني كنت بئراً ناضبة، جافة.

والناس يلقون بي الأحجار.

فإن ذلك أجدى وأخف حملاً من أن أكون ينبوع ماء حي.

يمر به الناس ولا يشربون».

«ليتني كنت قصبة يدوسها المارة بأقدامهم.

فإن ذاك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضية في بيت ليس لصاحبه أنامل.

وأولاده صم».

15

ثم انقضت سبعة أيام وسبع ليالٍ، لم يمر خلالها أحد قرب الحديقة، وأقام وحيداً مع ذكرياته وعذابه. وذلك لأن الناس انصرفوا عنه، ومضوا يبحثون عن أماكن أخرى ينفقون فيها أيامهم، حتى الذين أصغوا إلى كلماته بحب وأناة.

إلا أن كريمة وحدها أقبلت، والصمت يعلو محياها كأنه حجاب. وبيدها قدح وصحن، ولحم وشراب، ثم مضت لشأنها، بعد أن وضعت هذه الأشياء أمامه.

وعاد المصطفى إلى صحبة أشجار الحور البيضاء، وجلس وراء بوابته يتأمل الطريق، وإذا به يبصر، بعد برهة، شبحاً كأنه غمامة لاهثة على الطريق، قد أقبل عليه. وانجلت تلك الغمامة عن الأشخاص التسعة، وأمامهم كريمة تقودهم.

تقدم المصطفى ولاقاهم على الطريق، ومروا من البوابة، وكان كل شيء على ما يرام، ثم مضوا كما لو أنهم تابعوا السير، ولم ينقطعوا عنه سوى ساعة.

دخلوا وتناولوا عشاءهم معه على مائدته البسيطة، بعد أن أضافت كريمة إليها بعض الخبز والسمك وسكبت آخر ما لديها من خمرة في الأقداح. وفيما كانت تسكب، توجهت للمعلم برجاء قائلة: «اسمح لي أن أذهب إلى المدينة، وأبحث عن خمر أملأ بها الأقداح من جديد، بعد أن نفد ما لدي منها».

ونظر إليها، وكان في عينيه طيف رحلة وبلدٍ بعيد، وقال: «لا! إن هذا كافٍ حتى الساعة».

وأكل الجميع وشربوا وكانوا في سرور، حتى إذا فرغوا، تكلم المصطفى بصوت جهوري، عميقٍ كالبحر، زاخر كالتيار الدافق في ضوء القمر، وقال: «يا أصحابي ويا رفاق طريقي، لابد لنا من أن نسافر اليوم. لقد مضى علينا زمن طويل قطعنا به البحار المهلكة، وتسلقنا الجبال الوعرة وصارعنا العواصف. ولقد عرفنا الجوع، غير أننا جلسنا أيضاً إلى مآدب الأعراس، وغالباً ما كنا عراة، ولكنا ارتدينا أيضاً حللاً ملكية.

ولقد سافرنا، في الحقيقة، إلى أماكن بعيدة، ولكننا الآن نرحل. ستذهبون معاً في طريقكم، ولكن سأسلك وحدي في طريقي.

«وإننا سنظل، وإن كانت البحار والبراري الشاسعة ستفصل بيننا، رفاق سفر إلى الجبل المقدس».

«غير أني أود، قبل أن نمضي في مسالكنا الوعرة الشاقة، أن أقدم لكم حصاد قلبي ولقاطه:

«سيروا في سبيلكم وأنتم تغنون، ولكن لتكن كل أغنية قصيرة لأن الأغاني التي تموت باكراً على شفاهكم، هي وحدها التي تعيش في قلوب الناس».

«قولوا حقيقة جميلة في كلمات قليلة، ولا تقولوا أبداً حقيقة

قبيحة أية كانت الكلمات. قولوا للفتاة التي يلمع شعرها في الشمس إنها بنت الصباح. ولكن إذا شاهدتم الأعمى، إياكم أن تقولوا له إنه هو والليل شيء واحد».

«أصغوا إلى عازف الشبابة كما لو كنتم تصغون إلى نيسان ولكن إذا أنتم سمعتم الناقدين والباحثين عن الزلات يتكلمون، كونوا صماً كأنكم عظام جامدة، ابتعدوا إلى أبعد ما يشطح بكم الخيال.

«يا رفاقي ويا أحبائي! ستلاقون في طريقكم رجالاً ذوي أظلاف، فأعطوهم من أجنحتكم، وآخرين ذوي قرون، فقدموا لهم أكاليل غار، ورجالاً ذوي مخالب، فأعطوهم أوراق زهر لأناملهم، وآخرين ذوي ألسنة حادة، فأعطوهم عسلاً لكلامهم».

«أجل! ستلاقون هؤلاء جميعاً وأكثر. ستلاقون عرجاً يبيعون العكاكيز، وعمياناً يبيعون المرايا، وستلاقون الأغنياء على أبواب المعابد يتسولون».

«أعطوا العُرْج من رشاقتكم، والعُمي من بصركم، وانظروا إذا كنتم تعطون من أنفسكم للأغنياء المتسولين، فهؤلاء أفقر أهل الأرض، لأن ما من رجلٍ يمد يده للصدقات إلا إذا كان حقيقة فقيراً، وإن كان ذا أملاك وافرة».

«يا رفاقي ويا صحابي! أوصيكم باسم الحب الذي يجمع قلوبنا، أن تكونوا مسالك لا حصر لها يتلاقى بعضها مع البعض الآخر في الصحراء حيث تسير الأسود والأرانب، وتطوف الذئاب والنعاج».

«واذكروا هذا عني، أنا لا أعلمكم أن تعطوا، بل أن تأخذوا، ولا ألقنكم النكران بل الوفاء، ولا الاستسلام بل الفهم بابتسامة على شفاهكم».

«أنا لا أعلمكم الصمت، بل الغناء ولكن بصوت غير صاخب».

«أنا أعلمكم أن تحققوا ذاتكم الرحيبة التي تسع الناس أجمعين».

ونهض عن المائدة، وذهب يمشي في خط مستقيم نحو الحديقة، وسار في ظلال السرو، بينما كان النهار ينحدر إلى مغربه، وتبعوه عن مسافةٍ قريبة إذ كانت أفئدتهم مثقلة، وألسنتهم معقودة.

وجاءته كريمة وحدها، بعد أن طرحت فتات المائدة جانباً، وقالت: «أود يا معلم أن تسمح لي بإعداد الزاد لرحلتك وغدك».

نظر إليها بعينين تطل منهما عوالم أخرى غير هذا العالم، وقال: «يا أختي ويا حبيبتي! الزاد معد منذ بدء الزمن. والطعام والشراب جاهزان للغد، وحتى لأمسنا ويومنا».

«أنا ذاهب، غير أني إذا ذهبت وَلَديَّ حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وإن كانت عناصر جسمي قد تبددت في صمت الأبدية، وأعود ثانية إليكم، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد بصوت يرتفع من قلب ذلك السكون الأبدي».

«وإذا كان ثمة شيء من جمال لم أصرح به لكم، فسأدعى ثانية باسمي، أجل باسمي ذاته «المصطفى»، وسأعطيكم علامة تعرفون بها أني رجعت لأقول كل ما أنتم في حاجة إلى قوله، لأن الله لن يأذن بأن يخفى على الإنسان، ولا أن تظل كلمته محجوبة في حفرةٍ خفيةٍ من قلب إنسان».

«سأحيا وراء الموت، وسأغني في أسماعكم حتى بعد أن تحملني أمواج البحر وتعيدني إلى أعماق الخضم الأكبر.

وسأجلس إلى مائدتكم، حتى من غير جسد.

وسأذهب معكم إلى حقولكم، روحاً غير منظورة.

سآتيكم إلى مواقدكم ضيفاً لا ترونه.

الموت لا يغير شيئاً سوى الأقنعة التي تغطي وجوهنا.

وسيظل الحطاب حطاباً.

والحراث حراثاً.

والذي يغني أغنيته للريح، سيظل أيضاً يغنيها للأفلاك الدائرة».

وكان التلامذة صامتين صمت الحجارة، والأسى يفعم قلوبهم، لأنه قال: «أنا ذاهب»، غير أن أحداً منهم لم يضع يده في طريقه لإبقائه، ولا تبعه أحد، وهو يخطو.

وخرج المصطفى من حديقة أمه، وكانت خطواته هادئة، لا

صوت لها. وما هي إلا لحظة، حتى انطلق مرتفعاً عنهم وابتعد، كورقة ممزقة حملتها الزعازع، وأبصروا من أثره، كل ما أبصروه، نوراً شاحباً يتحرك في أجواز السماء.

وسار التسعة في طريقهم يهبطون، ولكن المرأة ظلت واقفة في الليل الزاحف، تشهد كيف أصبح النور والغسق شيئاً واحداً، وراحت تواسي وحدتها ووحشتها بكلماته: «أنا ذاهب، ولكن إذا أنا ذهبت ولدي حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وأعود إليكم مرة ثانية».

16

ثم وكان مساء.

وكان قد بلغ الروابي. وقادته خطاه إلى السديم، ووقف وسط الصخور وأشجار السرو البيضاء، محجوباً عن كل ما حوله، فأخذ يتكلم قائلاً:

«أيتها الغمامة، يا أختاه، يا نسمة لم تشاهد بعد في قالب.

أعود إليك نسمة بيضاء لا صوت لها،

وكلمة لم يفه بها أحد بعد».

«أيتها الغمامة، يا شقيقتي المجنحة، نحن الآن معاً وسنظل معاً إلى أن يلقيك يوم الحياة الثانية، قطرات ندى، في الفجر، على حديقة.

وأنا طفل في حضن امرأة

نتذكر ماضينا معاً.

«أيتها الغمامة، يا أختي! عدت قلباً يصغي إلى أعماقه، مطمئناً كقلبك.

وشوقاً خافقاً لا هدف له مثلما هو شوقك.

وفكرة لم تجن بعد كفكرتك.

«أيتها الغمامة، يا أختي، ويا بِكَر أمي!

يداي لا تزالان تحملان البذور الخضر التي أمرتني أن أنثرها.

وشفتاي مختومتان على الأغنية التي أمرتني أن أغنيها وأنا لم آتك بثمرة، ولم أحمل إليك أصداء، لأن يدي كانتا عمياوين، وشفتي لا تنبسان.

«أيتها الغمامة، يا أختي! أحببت العالم كثيراً، والعالم أحبني.

لأن بسماتي كلها كانت على شفاهه، وكل دموعي في عيونه.

وكان، مع ذلك، بيننا برزخ من صمت لم يضع فوقه جسراً.

ولم أستطع من جانبي أن أعبره.

«أيتها الغمامة، يا أختي، يا شقيقتي التي لا ينالها الموت.

أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار.

وهم ينصتون، والدهشة تعلو وجوههم.

ولكن يمكن أن ينَسْوا الأنشودة غداً.

وأنا لا أعرف إلى من سيحملها الريح.

وهي وإن كانت ليست لي، فإنها بلغت فؤادي وأقامت برهة على شفتي.

«أيتها الغمامة، يا أختي.

رغم أن كل ذلك مضى وانقضى، فإني في سلام

لقد كان كافياً أن أغني لمن ولدوا.

وإنه، وإن كان الغناء ليس لي في الحقيقة، ليرتفع من أعمق أشواق فؤادي.

«أيتها الغمامة، يا أختي الغمامة.

أنا وأنت الآن شيء واحد.

لم أكن ذاتاً منذ زمن طويل.

الجدران انهارت.

والسلاسل انكسرت.

وأنا ارتفعت إليك.

وسنبحر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية،

عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة،

ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة».

فهرس